

" كان العالم يختال بالعلم الذي هو ثمرة جهود بذلت في عدة قرون. وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضلها في كل مجال من مجالاته ... "

" دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الكفر العلمي أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الدهر. فإن الصرح العلمي الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية، تزعزع فجأة بشدة عظيمة وصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان، بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون ... "

" تلك المكتشفات التي توهمت بها آنفا قد كشفت اللثام عن الظنيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة، وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى كان العلماء يظنون أنه سلم منه أبد الأبد ... "

" وقد كتب المسيولوجيان بوانكارية (العلامة الرياضي الكبير) من جهته يقول: إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً، ويجمع عليها المجرّبون إجماعاً عاماً، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى، واتسع المجال للإجترارات الممكنة، ولم يظهر أن ناموساً من النواميس ضروري ضرورة مطلقة، فنحن نشهد في هذه الآونة أعمالاً هي أشبه بالهدم منها بإقامة بناء نهائي. فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسساً ثابتاً، صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة ... "

ثم ختم العلامة (جوستاف لوبون) هذا الفصل بقوله:

" من حسن الحظ لا شيء أحسن ملائمة للتقدم العلمي من هذه الفوضى. فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها، والحجاب الذي يحجبها عنا منسوخ غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي. فلا يمكن عمل خطوة للإمام إلا بعد تفكك عرى الآراء السابقة، والأشد خطراً على تقدم العقل الإنساني هو تقديم الظنيات للقراء لابساً حلال الحقائق المقررة، على نحو ما تفعله.